العصر العباسي الأول

أو المائة الأولى من سيادة العباسيين في بغداد
من سنة ١٣٢–٢٣٢هـ

هو عصر الإسلام الذهبي، بلغت فيه دولة المسلمين قمة مجدها بالثروة والحضارة والسيادة، وفيه نشأت أكثر العلوم الإسلامية، ونقلت أهم العلوم الدخيلة إلى العربية، وكانت دور الخلفاء آهلة بالأدباء والشعراء والعلماء مثل بلاط لويس الرابع عشر ملك فرنسا في إبان مجده. وكانت الدولة العباسية في أكثره صاحبة السيادة على العالم الإسلامي، وأوروبا في أكثف غياهب الجهالة.

وكان الشرق يومئذ في نهضة فكرية كأن الإسلام هز أركانه ونبه أهله، فنهض الفرس والترك والتتار والهنود — حتى أهل الصين واليابان؛ فإنهم هبوا هبة إصلاحية أدبية في أثناء العصر العباسي الأول أو على أثره، فنبغ في الصين نحو القرن العاشر للميلاد طائفة كبيرة من فحول الشعراء على عهد دولة طانغ، وكانوا كالعباسيين في دورهم الأول يحبون العلم ويقدمون العلماء. واشتغل اليابانيون في ذلك العصر أيضًا بإصلاح لسانهم، وتهذيب آدابهم الاجتماعية، ونبغ فيهم الشعراء والكتاب والمصورون والحفَّارون وغيرهم.

وتمهيدًا للكلام في آداب اللغة العربية في ذلك العصر نذكر الانقلاب السياسي الذي تقدمه بانتقال الدولة من الأمويين إلى العباسيين؛ ليهون علينا تفهم ما حدث من التغيير في الآداب والعلوم.

الانقلاب السياسي في العصر العباسي الأول

كانت عاصمة الدولة الأموية في دمشق على حدود بادية العرب، وكان خلفاء تلك الدولة عربًا، وجندها وقوادها وعمالها من العرب، وكذلك كُتَّابها وقُضاتها وسائر رجال حكومتها. أما الدولة العباسية فقد نصرها الفرس، فجعلت قصبتها (بغداد) على حدود بلادهم، واتخذت وزراءها وأكثر أمرائها وقوادها منهم. ولما عمرت بغداد تقاطر إليها الناس للارتزاق بالتجارة أو الصناعة أو الأدب أو الشعر أو بأسباب الملاهي، فالتقى فيها العربي والفارسي والرومي والنبطي والتركي والصقلي والهندي والبربري والزنجي، وفيهم المسلم والنصراني واليهودي والصابي والسامري والمجوسي والبوذي وغيرهم.

واعتبر ذلك في البصرة والكوفة من مدائن العراق الإسلامية، فقد كانتا آهلتين بالناس على اختلاف نحلهم وأجناسهم وعناصرهم، وتختلفان عن بغداد بمن أقام في ضواحيهما من جالية العرب أهل البادية من القبائل التي نزحت إلى هناك بعد الإسلام كما تقدم، وما زالت البصرة والكوفة مجتمع أهل الأدب والعلم والشعر حتى عمرت بغداد، فأصبحت بما استبحر من عمرانها هي وحدها أم المدائن الإسلامية وبؤرة العلم ومجتمع العلماء، ثم شاركتها في ذلك القاهرة وقرطبة ودمشق والقيروان وغيرها.

وناهيك بثروة بغداد وحضارتها وتبسُّط أهلها في العيش وإركانهم إلى الرخاء وتدفق الأموال من بيت المال على أهل الدولة، ومن يلتف حولهم من الأعوان أو أهل المهن أو الأدب أو الطرب.

الخلفاء والعلم والأدب

ويمتاز العصر العباسي الأول بمن تولى فيه عرش بغداد من الخلفاء العلماء لرغبتهم في العلم وإجلال العلماء والأدباء، فسهَّلوا نزوحهم إليهم، وأجروا الأرزاق عليهم، وبالغوا في إكرامهم، وقربوهم وجالسوهم وآكلوهم وحادثوهم وعوَّلوا على آرائهم، فلم يبقَ ذو قريحة أو علم أو أدب إلا يمَّم دار السلام ونال جائزة أو هدية أو راتبًا.

ولا يزهو العلم إلا في ظل أمير يتعهَّده ويأخذ بأيدي أهله — والناس كما يكون ملوكهم — وخلفاء العصر العباسي الأول من أكثر الملوك رغبة في العلم: يروى أن المنصور لما مات ابنه جعفر وانصرف إلى قصره بعد دفنه قال للربيع وزيره: «انظر من في أهلي ينشدني (أمن المنون وريبها تتوجع) حتى أتسلى بها عن مصيبتي.» فطلب الربيع

ذلك من بني هاشم فلم يجد من يستطيعه، فقال المنصور: «والله لمصيبتي بأهل بيتي ألا يكون فيهم واحد يحفظ هذا لقلة رغبتهم في الأدب أعظم وأشد عليَّ من مصيبتي بابني.»[١]

وكان للمنصور دفاتر علم هو شديد الحرص عليها حتى أوصى ابنه المهدي بها عند وفاته،[٢] وكان المنصور من أحسن رواة الحديث، وله ذوق في الشعر ينتقد الشعراء ويعرف المنحول والمسروق،[٣] وكذلك ابنه المهدي، فقد كان ينتقد الشعراء لكثرة تشبيبهم قبل المدح، وكان يكره الغزل.[٤] أما الرشيد فكان أكثرهم رغبة في العلم والعلماء، حافظًا للشعر، نقَّادًا للشعراء، وكان يحفظ شعر ذي الرمة حفظ الصبا،[٥] وهو مشهور بتقديم الشعراء والأدباء، وابنه المأمون أشهر من أن يذكر بعلمه وفضله، وذكروا له مؤلفات حسنة قد ضاعت.

وناهيك بأبناء الخلفاء والأمراء، فقد اشتغل كثيرون منهم بالأدب كإبراهيم المهدي. إنه أول نابغ من بني العباس في الترسل والشعر والموسيقى، وله كتاب في الأدب اسمه «أدب إبراهيم»، وكتاب الطبخ والطب، وكتاب الغناء ضاعت كلها، واعتبر ذلك أيضًا في الأمراء والوزراء كأبي دلف العجلي سيد قومه، فقد كان أديبًا وألَّف في سياسة الملوك والسلاح والصيد، والفتح بن خاقان وزير المتوكل كانت له خزانة علم لم ير أعظم منها كثرة وحسنًا، وكان يحضر داره فصحاء الأعراب وعلماء الكوفة والبصرة، واشتغل بالأدب لنفسه فألَّف كتاب اختلاف الملوك وكتاب الصيد والجارح وكتاب الروضة والزهر، وكان عبد الله بن طاهر شاعرًا مترسلًا بليغًا وكذلك ابنه طاهر ولكل منهما مجموع رسائل.

فالدولة التي يكون ملوكها وأمراؤها على هذه الصورة يجدر بها أن تزهو بالعلم والعلماء، واعتبر هذه القاعدة بسائر عصور آداب اللغة من أول الإسلام، فإنك لا تجد نهضة إلا كان للملك أو الأمير أو الرئيس تأثير كبير فيها — ذلك شأن الأمم في الحكم المطلق وإرادة الملك شريعة المملكة.

حرية الدين

ومن مميزات هذا العصر إطلاق الفكر من قيود التقليد إلا ما يمس الدولة أو الخلافة؛ ولذلك فقد تعددت البدع الدينية في أيامهم من المجوس وغيرهم، غير الفرق الإسلامية وتعدادها، وكان أكثر الخلفاء تسامحًا في الدين المأمون، فكان هو نفسه شيعيًّا، وكان وزيره يحيى بن أكثم سنيًّا ووزيره أحمد بن أبي داود معتزليًّا، يكفيك من تسامحه في الدين انتصاره للمعتزلة في القول بخلق القرآن.

فكانت الأفكار من حيث الدين مطلقة الحرية في ذلك العصر لا يكره الرجل على معتقده أو مذهبه، فربما اجتمع عدة إخوة في بيت واحد وكل منهم على مذهب، فأولاد أبي الجعد ستة منهم اثنان يتشيعان، واثنان مرجئان، واثنان خارجيان.

الوزراء الفرس والموالي

وكان للوزراء الفرس تأثير كبير في تلك النهضة، والفرس أهل مدنية قديمة، وكانوا يومئذ في نهضة علمية بدأت من زمن كسرى أنوشروان، وكان البرامكة على الخصوص يحبون العلم والعلماء، ويبذلون المال في تقريبهم واستحثاث قرائحهم، فوقف الأدباء والشعراء على أبوابهم كما وقفوا بباب الرشيد، وكانت لهم أيادٍ بيضاء في ترجمة العلم القديم إلى العربية.

ومن ثمار ذلك الانقلاب أن الموالي (المسلمين غير العرب) الذين كان الأمويون يحتقرونهم قربهم العباسيون، وفيهم الخراسانيون الذين نصروهم في تأييد دولتهم، وقدموا سائر الموالي واستخدموهم في أمور الدولة، فارتفع شأن الموالي من ذلك الحين وأكثرهم من الفرس، أشهرهم في العصر العباسي الأول آل برمك وآل الفضل. وكان الخلفاء العباسيون يتواصون بالموالي وحسن معاملتهم والإحسان إليهم، فنبغ فيهم طائفة كبيرة من العلماء والأدباء والشعراء ورجال العلم والعمل.

ومن ثمار الحضارة في ذلك العصر تكاثر الجواري مما لم يسمع به قبله حتى كان منهن في بعض المنازل عشرات، وفي البعض الآخر مئات، وبلغ عددهن عند الرشيد ٢٠٠٠ جارية، وصاروا يتهادونهن كما يتهادون الحلي والجواهر.[٦] وتكاثر الغلمان فيه وتفننوا في تزيينهم واستخدامهم، وشاع تسريهم كما يتسرون الجواري ويتهادونهم كما يتهادونهن، وصاروا يحجبونهم كما يحجبون النساء.[٧]

فالانقلاب السياسي والاجتماعي المشار إليه أحدث انقلابًا في الأفكار والعقول، وظهر أثر ذلك طبعًا في آداب اللغة كما سيجيء.

هوامش

(١) الأغاني ٦١ ج٦.
(٢) ابن الأثير ٧ ج٦.
(٣) البيان ١٥٦ ج٢.
(٤) الأغاني ٥٥ ج٣.
(٥) الأغاني ٣٩ ج٥.
(٦) ترى تفصيل ذلك في تاريخ التمدن الإسلامي ج٥.
(٧) الأغاني ٢٠٨ ج٦.